كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية؟

إن المعنى الذي يبدر إلى الذهن من لفظ الأزهر أنه جامعة إسلامية تُدرَّس فيها علوم الدين واللغة، ولكن المؤمن المتأمل الواعي إذا ذكره أو دخله وكان مهيأ بطبعه للاتصال الروحي بماضيه المشرق وتاريخه الحافل انثالت على خاطره منه دلالات وذكريات وطيوف تملأ النفس خشوعًا وجلالاً وروعة. فالأزهر كلمة من الكلم النوابغ الجوامع، في لفظها استيعاب ووعي، ولمعناها إشعاع ووحي. فهي زمان ومكان ودين ودنيا وتاريخ.

يعني الأزهر فيما يعني المنار الذي ارتفع في طريق الدعوة العظمى ثم ثبت بنيانه على رجف الزلازل وانتشر ضوءه على عصف الرياح، وقاد الشعوب الإسلامية في ظلمات الخطوب والحروب إلى ملتقى السلامة والكرامة والوحدة.

ويعني الأزهر فيما يعني المعقل الذي حفظ الثقافة العربية ألف سنة ونيفًا، يسهر عليها ويزيد فيها وينفق منها على طلاب المعرفة في الشرق والغرب، على حين دمر الجهل والكفر حصونها في بغداد والأندلس.

ويعني الأزهر فيما يعني الحصن الذي اعتصمت به اللغة العربية من عدوان الشعوبية والعامية والتركية حين استعجم اللسان واستترك السلطان وفشت الجهالة وضعفت الخلافة وعز الناصر وذل الأهل.

ويعني الأزهر فيما يعني القبلة الثانية التي يوجه المسلمون في جميع أقطار الأرض قلوبهم إليها يتلمسون على هداها الطريق إلى الحق والسبيل إلى الله.

ويعني الأزهر فيما يعني الملاذ للشعب المظلوم كلما عسفه الطغيان وبغى عليه الحكم فيأوى منه إلى ركن شديد وحام قادر.

يعني الأزهر فيما يعني الجامعة العالمية التي يؤمها الطلاب من كل أرض ومن كل جنس ومن كل لون ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لا يبغون من وراء ذلك مالاً ولا جاهًا ولا شهرة.

ويعني الأزهر فيما يعني الخانقاة التي آوت العُبَّاد والزهاد والوعاظ وحفظة القرآن وحملة البركة.

ويعني الأزهر فيما يعني القاعدة الروحية التي كان يخشاها المستعمرون فحاولوا سرًا وعلنًا أن يدمروها ليتقوها، فلما استيأسوا من تدميرها أو إضعاف تأثيرها سالموها ونافقوها، ثم جهدوا أن يستغلوها.

ويعني الأزهر فيما يعني الصرح الوطني الذي أجج الثورات على الفساد، وخرج القيادات للجهاد! وقام من نهضة العرب الحديثة مقام الرأس واليد، يمدها بالروح ويرفدها بالقوة. ثار على الغزو الفرنسي بقيادة ستة من علمائه. وثار على الطغيان التركي بقيادة شيخه عبد الله الشرقاوي. وثار على الظلم الخديوي بقيادة ابنه أحمد عرابي. وثار على الاحتلال البريطاني بقيادة ابنه سعد زغلول.

كل أولئك يعنيه لفظ الأزهر، وأكثر من أولئك يلازم معنى الأزهر، ولكني بسبيل الحديث عن نصيب اللغة العربية من فضل الأزهر فلا أخوض في حديث غيره.

* * * * *

إن فضل الأزهر على اللغة العربية مستمد من فضل القرآن الكريم عليها؛ وبعض فضله أنه كسبها عذوبة في اللفظ ورقة في التركيب ودقة في الأداء وقوة في المنطق وثروة في المعاني. وكان سببًا في استحداث العلوم الشرعية والأدبية التي حفظت مادتها بالقواعد وفي المعجمات، ووسعت دائرتها بالألفاظ والمصطلحات، كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي وحدها على كل لسان، ونشرها معه في كل مكان، وحفظها أربعة عشر قرنًا إلا قليلاً لا تفسد ولا تجمد ولا تتغير مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9] وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته. والناظر في تاريخ الأديان السماوية والأرضية لا يجد دينًا حملته لغته التي أنزل بها أو كتب فيها إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب في مدى 1382 سنة ثم بقيت محافظة على

قوتها وجدتها ووحدتها وطبيعتها إلا دين الإسلام ولغة العرب، أما سائر الأديان فلا نقرأ كتبها الأصلية إلا في لغة البلد الذي ظهرت فيه، فإذا نقلت إلى بلد آخر عن طريق الدعوة قرئت مترجمة إلى لغته، واختص بمعرفة الأصل طائفة قليلة من رجال ذلك الدين، فمدونة الأسفار البوذية المسماة بالسلات الثلاث لا يقرأها أتباع هذه الملة في الصين واليابان إلا منقولة إلى الصينية واليابانية. والتوراة والإنجيل – وهما كتابان منزلان – لا يقرآن في العالم المسيحي إلا في لغة كل قطر من أقطاره. لذلك ظل تأثيرهما في الآداب الأخرى ضئيلاً حتى ترجمتا إلى اللاتينية والقوقونية القديمة فظهر أثرهما قويًا في الآداب الأوروبية.

وليس كذلك الحال في القرآن، فإن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغته جزء من حقيقة الإسلام، لأنها كانت ترجمانًا لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولسانًا لدعوته، ثم هذبها النبي الكريم بحديثه ونشرها بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآنًا إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها، لذلك سارعوا إلى تعلمها والتكلم بها والتأليف فيها والتعصب لها والدفاع عنها والدعوة إليها حتى حلت محل الفارسية في العراق والرومية في الشام والقبطية في مصر والبربرية في المغرب، وأصبحت في عصر بني العباس وهو عصرها الذهبي لغة الدين والأدب والعلم والسياسة والإدارة والحضارة في أكثر الدنيا القديمة، وأصبح المسلم على اختلاف جنسه ينتقل من قطر إلى قطر في عالمه الإسلامي كما ينتقل من بلد إلى بلد في وطنه الأصلي، لا يجد مشقة في التفاهم، ولا صعوبة في التعامل، ولا شدة في المعيشة. ثم شُغل المسلمون عربهم وعجمهم بالقرآن وفرغوا له، فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجهم في العمل، ودستورهم في الحكومة، فسرى هديه منهم مسرى الروح، وجرى وحيه فيهم مجرى الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم تأثيراً لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله.

ومن هنا كانت ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسيين هما:

الدين بعلومه المختلفة.

واللغة بفنونها المعروفة.

وهذان الركنان يشد أحدهما الآخر ويمسكه، فالإسلام بغير العربية ينبهم ويضمحل، والعربية من غير الإسلام تنكمش وتزول. واللغات السامية مدينة ببقائها للدين، فلولا اليهودية ما بقيت العبرية، ولولا المسيحية ما بقيت السريانية، ولولا الإسلامية ما بقيت العربية. ولكن الفرق بين بقاء العربية وبقاء العبرية والسريانية هو الفرق بين الروح والدماء، أو بين العين والأثر: والأزهر وهو وارث النبوة وحامي العقيدة وناشر الدعوة لا يمكن أن تقوم رسالته إلا على هذين الركنين وقد أداها بتأييد الله وتوفيقه تأدية أحلته من العالم الإسلامي كله محل الزعامة.

على أن فضله على علوم القرآن وعلوم اللسان قد يشاركه فيه بالكثير أو بالقليل طائفة من المدارس والجوامع أنشأها السلاطين في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والنجف وقرطبة والقيروان والزيتونة، كالناصرية والقمحية والصلاحية والمؤيدية والمنصورية والشيخونية والظاهرية والكاملية والنظامية؛ ولكن هذه المدارس التي عفى على أكثرها الزمن لم تستطع في حياتها منفردة أو مجتمعة أن تطاول الأزهر فضله الخالد على اللغة العربية في بقائها لسانًا للعلم ورباطًا للمسلمين إلى اليوم.

* * * * *

تحيفت الخطوب السود لغة القرآن في محنتين أشفت فيهما على الموت لولا أن تداركها الله بفضله: محنة الغزو المغولي في منتصف القرن السابع حين انتكث فتل العباسيين في العراق بتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس، فقوض هولاكو عرشها سنة 656هـ. وتضعضع أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم وتقسيمه بينهم إلى دويلات سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة 898هـ. ودالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين سنة 913هـ، فأتى على العرب ستون وخمسمائة عام لم يكن لهم فيها سلطان ولا ملك، فأصبحت ديارهم وآثارهم نهبًا مقسمًا بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وكان أكثر هؤلاء الأعاجم وحشيين أميين فخربوا الدور وهتكوا الخدور وفجعوا اللغة وآدابها

وعلومها بتحريق المكاتب وتعطيل المدارس وتقويض المراصد وتقتيل العلماء. ناهيكم بما فعله التتار في بخارى وبغداد، والصليبيون بالشام، والفرنج بالأندلس. فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك خارقًا لطبيعة الأشياء ولا بدعًا في منطق التاريخ. ولكنها بقيت على الرغم من هذه الخطوب لسانًا للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نعرة الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة. والفضل في بقائها بعد إدبار الزمان والسلطان عن أبنائها، إنما كان لهذا الأزهر الجليل الذي اختصه الله بمزايا تميز بها على غيره: منها صبغته العربية الخالصة بحكم نشأته وبيئته، وموقعه الوسط بين الشرقيين الأدنى والأوسط فكان ملتقى المسلمين من هنا ومن هناك. ومنها قربه من الحجاز فكان طريق الحجاج والرحالين من علماء أفريقية والأندلس. ومنها تخريجه طائفة كبيرة من أعلام الفقه وأعيان الأدب جمعوا شتات اللغة والعلوم والآداب في أسفار أشبه بدوائر المعارف. ومنها مكانته التي بلغت من قلوب المسلمين والحاكمين مبلغ القداسة وكان لها أثر بالغ في حل بعض المشكلات السياسية والاجتماعية. ومنها كفايته الأساتذة والطلاب مؤونة العيش بأن كفل لهم الغذاء والكساء والمأوى والكتاب. ومنها إيواؤه الناجين بحياتهم ودينهم وعلمهم وأدبهم وكتبهم من غارة المغول حين اكتسحوا خراسان وإيران والعراق، فكان لمهاجرة هؤلاء العلماء من الشرق والغرب إلى القاهرة من البحث والابتكار، ما كان لمهاجرة علماء المسيحية من القسطنطينية إلى روما من البعث والازدهار. ومنها مناصرة الأيوبيين له بالمال والتعضيد، لأنهم وإن كانوا أكرادًا قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبع من بينهم الشاعر والعالم والمؤرخ، كالملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء، والملك الأفضل علي ابن صلاح الدين، وكان هذا الملك ضعيف الرأي كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان على ملك الشام ومصر، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتابًا يشكو إليه فيه ذلك بدأه ببيتين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجادة وهما:

مـــولاي إن أبـــا بكـــر وصـــاحبه عثمان قد أخذا بالسيف حق علي

فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأول

يريد بأبي بكر عمه، وبعثمان أخاه، وبعلي نفسه. فأجابه الخليفة الناصر بقوله:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنًا بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليًا حقه إذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

والجزالة ظاهرة في شعر الملك الكردي ظهور الركاكة في شعر الخليفة العربي !.

كذلك أقول في المماليك فقد أيدوه وأمدوه؛ لأنهم اتخذوا مصر وطنًا، والإسلام دينًا، والعربية لغة، وكان من بينهم شعراء عالجوا القريض وأجادوه كالسلطان الغوري. هؤلاء المماليك قد عضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين، حتى خرج الأزهر في ظلهم أولئك الأئمة الذين استودع الله صدورهم ذخائر العلم والحكمة فأودعوها الكتب وأخرجوها للناس: كجمال الدين ابن منظور، وجمال الدين ابن هشام، وشمس الدين النويري، وابن فضل الله العمري، وشمس الدين الذهبي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وأبي العباس القلقشندي، وتقي الدين المقريزي، وبدر الدين العيني، وسراج الدين البقليني، وبدر الدين الدماميني، وشمس الدين السخاوي، وكمال الدين الدميري، وجلال الدين السيوطي، وتقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد.

لهذه المزايا انتهت إلى الأزهر في القرون الثلاثة السابع والثامن والتاسع زعامة الثقافة في جميع البلاد العربية والإسلامية، فحفظ وجود اللغة، ورفع سقوط الأدب، وجمع شمل العلم، ولولاه لانقطع ما بين الأدبين القديم والحديث.

* * * * *

أما المحنة الأخرى التي امتحنت بها العربية وكان للأزهر الفضل في وقايتها وسلامتها فهي محنة الغزو التركي في أوائل القرن العاشر حين استولى السلطان سليم على مصر والشام سنة 933هـ فأصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وعاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية، ومكث الغازي سليم في مصر بعد الغزو ثمانية أشهر سلبها فيها أنفس أعلاقها من الكتب والتحف والآثار لنوابغ

الفنانين والمؤلفين الذين تخرجوا في الأزهر وأنتجوا في مصر مدى القرون الثلاثة التي سبقت الغزو العثماني. وأخذ الغزاة يغلبون لغتهم على اللغة العربية في الدواوين، ويطاردونها في المدارس، حتى كانوا يعلمون قواعد اللغة العربية بالتركية في الشام والعراق؟ ففشا في اللغة العامي والدخيل وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وخيم الظلام على النفوس فخمدت القرائح، وضعفت رغبة الحكام في العلم وانقطعت أسباب الطلب به، واستطاع الترك أن يتركوا كل شيء في مصر من سياسة وإدارة وتعليم وجيش إلا الأزهر، فقد راعهم ما أحسوا من جلاله وما سمعوا عن مجده، فوقفوا على أبوابه خاشعين يلتمسون منه العون على ما ينجم من الأحداث، والرأي فيما يشكل من الأمور.

والسلطان سليم نفسه قد زاره مرارًا فصلى فيه وتبرك به. ومن قبل ذلك قد غزا الأزهر بلاد الأتراك بعلمه وأدبه وكتبه فعرب طائفة منهم تعلموا العربية وتكلموا بها وألفوا فيها كالفيروزابادى وأبي السعود والفناري وملا خسرو والجامي والخيالي وخوجه زاده وملا مسكين وملا لطفي وحاجي خليفة وطاشكيري زاده وابن كمال باشا. وكان سلاطين العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها، ومنهم من قرض الشعر العربي ورواه كالسلطان أحمد الأول فقد رووا له قصيدة غزلية مطلعها:

ظبـي يصـول ولا وصـول إليـه جـرح الفـؤاد بصـارمي لحظيـه

ولم تضعف عناية علماء الترك بالعربية إلا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحيا اللغة التركية وقربا مواردها وبسطا قواعدها وسمياها اللغة العثمانية. فأنتم ترون أن اللغة العربية قد أتى عليها ستة قرون قضتها بين الاحتضار والموت، ثلاثة منها في العصر المغولي، وثلاثة أخرى في العصر العثماني، أمحت فيها من الهند وخراسان العراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت في الأقطار العربية بقاء المريض أشرف على الموت ولم يبق منه إلا رمق. ذلك الرمق هو الذي كفله الأزهر وتعهده فغذاه وقواه ورعاه، حتى إذا انجاب عن مصر قتام الحكم العثماني وأراد الله لشمس الحضارة أن تشرق على وادي النيل زايل اللغة الوهن وسرت فيها الحياة. ففي الأزهر كان ... وغياثها، وفي الأزهر كان بقاؤها وانبعاثها.

كان الأزهر بعد انتهاء تلك الغمرة باحتلال نابليون، وابتداء هذه النهضة باستقلال محمد علي، قائد الشعب في الكفاح، ورائد الحكومة في الإصلاح. تمثلت قيادته في شيوخه الأجلاء خليل البكري، وعبد الله الشرقاوي، ومحمد المهدي، وسليمان الفيومي، وحسن العطار. وتجلت ريادته في طلابه النجباء الذين أرسلوا إلى أوروبا ليستفيدوا ويستزيدوا، كإبراهيم النبرواي، وأحمد حسن الرشيدي، ومحمد علي البقلي، ورفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة العربية، ساعدها على النهوض، كما حماها من قبل دون السقوط.

* * * * *

هاتان هما المحنتان اللتان عانتهما العربية في عهدين متواليين، ثم جعل الله نجاتها منهما بفضل الأزهر حفظًا لكتابه وصونا لدينه.

وهناك محنة ثالثة تجتازها اللغة اليوم وتوشك أن تبلبل اللسان وتعطل القرآن وتقطع الدين عن أصله، وتفصل العربي عن أهله، وتهبط بالأدب من جبل الوحي حيث الترفع والسمو والنبل، إلى حضيض المادية حيث التسفل والتبذل والفحش.

تلك هي محنة الإباحية اللغوية التي تُغَلِّب العامية على الفصحى، وتؤثر أدب العامة على أدب الخاصة، وتفضل الموضوع المثير على الموضوع المنير، وتريد أن يكتب الكاتب وينظم الشاعر كما يشاء، لا يتقيد بقاعدة من نحو ولا قياس من صرف ولا نظام من بلاغة ولا وزن من عروض ولا مثال من خلق.

ولهذه المحنة أو المشكلة أصلان: الاستعمار والجهل.

أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم هي الدين واللغة. وما دامت أمة محمد روحًا واحدًا بالإسلام؛ ولسانًا واحدًا بالعربية، فإن استغلالها موقوت وإن طال، وإن استقلالها آت وإن تأخر، لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب في الجزائر لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين. ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا، ولغة المصحف كانت أمضى من لغة السيف. واكتفت انجلترا على عادتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها

ومستشرقيها؛ لأن اللغات العامية تختلف في البلاد العربية اختلافًا شديدًا يكاد يجعل من كل لهجة منه لغة مستقلة. وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهي الفصحى استحال التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يلتقمها لقمة لقمة فلا يغص ولا يشجى. ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار في الشرق، وقوة الوعي في العرب.

وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمحنة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار في هذه الدعوة المجرمة، والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها، وعزوفهم عن علومها وأدبها، وهو جناية المدرسة المدنية الحديثة، فقد فشلت بعد طول الزمن وكثرة التجارب في تخريج القارئ الذي يقرأ بفهم، والكاتب الذي يكتب عن علم، والمفكر الذي يفكر عن أصالة، وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأبًا ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكرة تعبيرًا صحيحًا لا بلسانه ولا بقلمه. فإذا دفعه استعداده الأدبي إلى الكتابة آثر العامية على الفصحى، ودعا التحلل من القواعد والقيود ليجعل الفوضى نظامًا والخطأ مذهبًا والعجز شركة.

كانت علوم العربية تدرس في الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي وفيما يجرى على منهجه من معاهد لبنان وسورية والعراق والمغرب دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما يقرأ وفقه ما يعلم وتعليل ما ينقد وتحليل ما يذوق. فإذا اتصل العلم بالعمل واقتران الحكم بالتطبيق وصادف ذلك استعدادًا في المتعلم ظهر الكاتب الذي يكتب فيجيد، والشاعر الذي ينظم فيبدع، والناقد الذي يحكم فيصيب، أما إذا فتر الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذي يهيئ الوسائل ويقرب المناهل ويوجه المواهب ويسدد الخطى. ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر وتنمو لتنتشر وتسمو لتخلد، وكان من خريجي هذا المنهج القديم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة وجددوا شباب الأدب وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة. ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة في أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع

دون آخر، فإذا خلا المجتمع منهم بعد أجل طويل أو قصير فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب؟.

الجواب عن هذا السؤال عند الأزهر وحده؛ فهو بحكم طبيعته وعلة وجوده معتصم اللغة ومنجاها في الماضي والمستقبل، أما المعاهد الأخرى فكل شيء فيها يبعث على التشاؤم: منهج تطبيقي يكاد يخلو من القواعد، وتعليم سطحي مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان العام بأية وسيلة، فالمطولات تختصر، والمختصرات تختزل، فلا يبقى بعد ذلك في ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هي مستقرة ولا هي واضحة. ذلكم إلى زهادة في الجدي النافع من ثقافة اللسان والقلم تقعد النشء عن تعمق الأصول وتقصي الفروع، وتقنعهم بالقدر الذي ينقلهم من سنة إلى سنة أو من شهادة إلى شهادة. فإذا ما تخرج الناشئ بهذا الحظ المنكود من اللغة وكان في نفسه ميل إلى الأدب، وفي طبعه استعداد للكتابة، انصرف عن كنوز الأدب العربي؛ لأن مفاتيحها ليست عنده، وأقبل على روائع الأدب الغربي يحاكيها ويستوحيها، حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئًا يفيد الناس وجد في نفسه الملكة التي تخلق وفي حسه الصورة التي تمتع، ولكنه لا يجد في لسانه اللغة التي تعبر، ولا في قلمه الأسلوب الذي يؤثر، فيضيق ويسخط ويثور، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل، ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء.

تلك حال المتخرج الأديب بطبعه؛ أما المتخرج العادي فإنه يعود أُميًا كما بدأ، لا يقرأ إذا قرأ إلا السهل، ولا يطلب هذا السهل إلا في قصة عامية تخدر الشعور، أو في مجلة فكاهية تنبه الشهوة؛ حتى نشأ من إفراط القراء في هذا الطلب، إفراط الكتاب الخفاف في عرض الأدب اللذيذ الذي لا ينفع، أو الأدب الماجن الذي لا يرفع. ذلكم إلى طغيان الأدب الأوروبي بمذاهبه ونزعاته وترهاته على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ففتنهم عن أدبهم وصرفتهم عن تاريخهم.

فالمتفرنسون منهم يعرفون هوجو ولا يعرفون المتنبي، ويدرسون فولتير ولا يدرسون الجاحظ، ويقرءون لامرتين ولا يقرءون البديع. ومن هنا نشأت هذه التبعية

التي فرضها الشباب على أدبنا لأدب الغرب، فأساليبهم الكتابية اليوم هي أساليب الكتابة في الغرب، ومذاهبهم الأدبية هي مذاهب الأدب في الغرب، ومقاييسهم النقدية هي مقاييس النقد في الغرب، حتى الرمزية وهي بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح، وحتى الوجودية وهي بنت الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التي كرمت الإنسان وفضلته من سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها ... ولا يتحداها وهو مؤمن.

ليس الأمر في الأدب كالأمر في العلم. الأدب للنفس والعلم للجسد، والأدب مواطن والعلم لا وطن له. الأدب روح في الجسد ودم في العروق يكوِّن شخصية الفرد فيحيا مستقلاً بنفسه، ويبرز شخصية الشعب فيحيا متميزًا بأفراده. الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد. والعلم شيء غير أولئك كله، فإذا جاز طبعًا أن نأخذ من غيرنا ما يكمل نقصنا من العلم، فلا يجوز قطعًا أن نأخذ من هذا الغير ما يمثل أنفسنا من الأدب.

إن دراسة العربية على النهج الصحيح المنتج بعد المدرسة لا يكلف المتأدبين من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الإنجليزية: ولكنهم في عصر السرعة يطلبون القريب ويتوخون السهل ويتخطفون العلم ويتعجلون الإنتاج، ثم يحقدون على من يلزمونهم التأني ويجشمونهم الدرس ويقولون لهم إن أحدًا لا يعرف في تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد في لغته كاتبًا أو شاعرًا أو قصاصًا أو مؤلفًا، وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه. وإذا كان الناس يقرءون الصحيفة أو الكتاب ولا يقعون فيها على الخطأ الذي يفضح المستور ويكشف الغش، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين من الأزهريين الذين يرابطون ليل نهار في دور الصحافة والنشر ويسمونهم المصححين؛ فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم، وعلى المعجم فيعرب، وعلى الركيك فيقوى.

لا بأس أن ييسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب: ولكن البأس كله في المدى الذي بلغة هذا التيسير. لا بأس أن نخفف على غير المتخصصين من عبء

التقديرات والتعليلات التي فلسف بها النحاة النحو، ومن حفظ وجوه الإعراب التي بقيت في اللغة أثرًا لاختلاف اللهجات في الجاهلية فهو شت القواعد وجعلت كل خطأ صوابًا وكل صواب خطأ، ولكن البأس كله في أن تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمي، فيه الخفة والبساطة والشكل، وليس فيه العضل والعصب والروح.

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان، وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب. فإذا استطاع يومًا أن يجيز امتحانًا أو ينيل شهادة فلن يستطيع أبدًا أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر بشيوخه وكتبه، كمحمد عبده، وسعد زغلول، والمنفلوطي، والبشري، وطه حسين، ولا أمثال من خرجتهم دار العلوم كشاويش، والمهدي، والخضري، والسكندري، والجارم، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء الشرعي، كأحمد أمين وعزام والخولي؛ ولا أمثال من خرجتهم دار المعلمين العليا، كالمازني وشكري وأبو حديد. ولا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد، والرافعي، وشوقي، وحافظ في مصر. وكالبستانيين واليازجيين والشدياق ومطران والخوري في لبنان. وكالمغربي، والشهابي، وجبرى، والأفغاني، في سورية. وكالرصافي، والزهاوي وكاشف الغطاء، والشبيبي، والأثري، في العراق، وكالنشاشيبي والسكاكيني والحسيني في فلسطين.

إني أدعو إلى التوفيق بين الفصحى والعامية. ومذهبي في مجمع اللغة العربية إمداد الفصحى بما تزخر به العامية من ألفاظ الحضارة وتراكيبها التي دخلت الحياة العامة حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهي بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة والتعليم إلى لغة واحدة عامة، فيها من الفصحى السلامة والجزالة والبلاغة والسمو، وفيها من العامية الدقة والطبيعية والحيوية والتجدد والوضوح.

أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لا تقوم على قواعد، ولا تجري على أنظمة، ولا تشعرنا بجمال، ولا تحفزنا لكمال، ولا تربطنا بماض، ولا تصلنا بمستقبل، ولا تجمعنا في وحدة، فذلك مذهب لا يقول به رجل وهو جاد، ودعوة لا يستجيب لها إنسان وهو عاقل.

فإذا تركنا الأمور تجري كما تجري انتهت بنا إلى تغلب العامية، لأن أساليبها غالبة على السمع، وقواعدها جارية مع الطبع، فلا يحتاج تحصيلها إلى كتاب ومعلم ومدرسة، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع. وتغلب الأساليب العامية معناه كما قلت فصل الأدب عن الدين وقطع الحاضر عن الماضي وتوهين الصلات بين العرب. وفي يقيني أن أمر العربية يصلح آخره إلا بما صلح به أوله: فقه أسرارها كل الفقه، وفهم قواعدها أدق الفهم، وحفظ أدبها أشد الحفظ، وذلك يستلزم الجهد والجد في إعداد المعلم، والعلم والخبرة في وضع المنهج، والمنطق والذوق في تأليف الكتاب، والكتاب الأزهري الذي تخرجنا عليه ومازلنا نرجع إليه كنز من المعارف لا يعوزه إلا سهولة مأخذه وحسن تنسيقه وجمال عرضه، فالفرق بينه وبين الكتاب الحديث في العرض كالفرق بين حانوت من حوانيت العطارة في الغورية، وبيت من بيوت التجارة في قصر النيل. قد يكون في الحانوت القديم ما ليس في المتجر الحديث من السلع التواجر والطرف النوادر؛ ولكن اختفاءها في ركن غير ظاهر، وعرضها في معرض غير لائق، يضعف الإقبال عليها ويقلل الاستفادة منها. فإذا عرضت الكنوز الأزهرية عرضًا جميلاً مشوقًا في الدروس والمحاضرات والمذكرات والكتب كان ذلك عسيا أن يدنى قطوفها من الطلاب على غير مؤونة ولا كد ذهن.

* * * * *

إن رسالة الأزهر قائمة كما قلت على ركنين من دين ولغة، ولكن الأمر في تأديته إياها جد مختلف. الدين كامل لأنه من عمل الله، واللغة ناقصة لأنها من عمل الإنسان، والكامل الإلهي لا يتأثر بالمكان ولا يتغير بالزمان ولا يضيق بالحضارة ولا يبرم بالعلم، فهو جديد أبدًا، صالح أبدًا، ثابت أبدًا. أما الناقص فهو عرضة للفساد والجمود والتخلف، وموضع للزيادة والتجديد والتطور؛ لذلك كان الاجتهاد في اللغة وعلومها أمرًا تحتمه الضرورة وتقتضيه الطبيعة؛ لأن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين، ولا أن تستقل استقلال الحي، فهي ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والأغراض لا تنتهي، والمعاني لا تنفد، والناس لا يستطيعون أن يظلوا خرسًا، وهم يرون الأغراض تتجدد والمعاني تتولد، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع، والعلوم تطالبهم كل حين

بمصطلح، ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين في حدود الزمان والمكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء.

نشأ من إنكار حق الوضع اللغوي على المولدين وحصره فيمن يعتد بعربيتهم من عرب الأمصار حتى آخر المائة الثانية، أو أعراب البوادي حتى آخر المائة الرابعة، أن طغت العامية طغيانًا جارفًا حصر اللغة الفصحى في طبقات العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، يكتبون بها المملوك، ويؤلفون فيها للخاصة، وسيطرت على حياة الأمة في شئونها العامة وأغراضها المختلفة؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد، وطبيعية تنفر من الصنعة، فهي تقبل من كل إنسان، وتستمد من كل لغة، وتصوغ على كل قياس. والناس في سبيل التفاهم يؤثرون السهل، ويستعملون الشائع، ويتناولون القريب. وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملائمة الحياة معناه الجمود. والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها، بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها. وقد تنبه مجمع اللغة العربية لهذا الخطر فقرر فيما قرر استجابة لاقتراح عرضته، فتح باب الوضع اللغوي للمحدثين بوسائله المعروفة من الاشتقاق والتجوز والارتجال، وإطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس. وتحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالبنائين والنجارين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات، واعتماد الألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ القديمة، وعلى هذه المبادئ وغيرها وضع معجمه الوسيط.

أما الاجتهاد في الدين فقد فتحت أبوابه أول الأمر لمن تجهز بجهازه واعتد له بعدته، حتى إذا زخر الفقه الإسلامي على اختلاف مذاهبه ومدى عصوره بالآراء المحكمة والوجوه المحيطة، وجد فيه المسلمون جوابًا شافيًا عن كل سؤال يخطر على الذهن، وحلاً حاسمًا لكل إشكال يعرض في المجتمع، وحكمًا عادلاً في كل قضية ترفع إلى القضاء، فاستغنوا بغزارته وإحاطته عن الاجتهاد فيه، وانصرفوا إلى اجتهاد من نوع آخر هو الاجتهاد في اختيار الرأي المناصب، وترجيح الحكم الموفق.

جاء في كتاب "الولاة والقضاة" للكندي: أن قاضيًا شافعي المذهب كان بمصر في عصر الإمام الطحاوي وكان يتخير لأحكامه ما يرى أنه يحقق العدل من آراء الأئمة ولا

يتقيد بمذهب من المذاهب، وكان مرضي الأحكام، لم يستطع أحد أن يطعن عليه في دينه ولا في خلقه ولا في حكمه. سأل هذا القاضي الإمام الطحاوي عن رأيه في واقعة من الوقائع، فقال الطحاوي: أتسألني عن رأيي أو عن رأي أبي حنيفة؟ قال القاضي: ولِمَ هذا السؤال؟ قال الطحاوي: ظننتك تحسبني مقلدًا. فقال القاضي: لا يقلد إلا عصبي أو غبي.

هذه الثروة الفقهية الضخمة لم يحجبها عن الناس إلا أسلوب التأليف القديم واليوم وقد تطورت المدينة وتغيرت العقلية ينبغي أن يطابق التعليم والكتاب مقتضيات العصر.

هذه هي المحنة الثالثة التي تعانيها اللغة العربية اليوم. وهي لا تختلف عن سابقتيها إلا في أن موقف الأزهر منها يجب أن يكون إيجابيًا: يقابل العمل بالعمل، ويرد الكيد بالكيد، ويقاوم الدعاية بالدعاية، ويقف بالمرصاد لكل من يسول له جهله أو هواه أن يعبث بلغة الإسلام، ويوهن رابطة العرب.

والأزهريون الذين حملوا أمانة الله، وبلغوا رسالة نبيه أكثر من عشرة قرون يستطيعون أن يدرأوا خطر هذه الإباحية عن اللغة والدين متى صدقوا الجهاد وذكروا أنهم جند الله يرمي بهم العدو في كل وقت وفي كل أرض وعلى أي صورة، فيعيشون للموت كالجنود، ويعملون للحياة كالقادة، ويعزفون عن الدنيا كالرسل.

والله سبحانه وتعالى قد ضمن للعربية بقاء البيان ببقاء القرآن. وعلى أيدي أبناء الأزهر المؤمنين برسالته سيصدق الله وعده، وإن الله لهو خير الصادقين.